

إضاءات نقدية (فصلية محكمة)

السنة الرابعة - العدد الخامس عشر - خريف ١٣٩٣ ش / أيلول ٢٠١٤ م

صص ٧٩ - ٦١

ظاهرة تراسل الحواس في شعر أبي القاسم الشابي وسهراب سبهري

زينت عرفت پور*

امينه سليمانى**

الملخص

تراسل الحواس هو نوع من أنواع تنمية الصورة الشعرية عن طريق التبادل بين مدركات الحواس التي يقوم بها الشاعر للتوسع في الخيال وخلق صورة مميزة ومؤثرة لإثارة الدهشة في المتلقى. وقد قامت هذه الدراسة باستعراض تقنية تراسل الحواس في شعر أبي القاسم الشابي وسهراب سبهري؛ حيث اعتمدا عليها في نتاجاتهما الشعرية بشكل ملحوظ وممتاز. والمدير بالذكر أن تبين مدى نجاح هذين الشعاعين في توظيف تقنية تراسل الحواس لخلق الألفاظ والمعاني المبتكرة وتحفيز مشاعر المتلقى لاستيعاب شعرهما، هي مهمتنا التي لم يتطرق إليها بحث مستقل من قبل. وفي هذا البحث نقوم بدراسة هذه الظاهرة من خلال اختيار نماذج شعرية من الشعاعين، وتفسيرها على أساس المنهج الوصفي - التحليلي. ففي شعر الشعاعين أدى اختلاط الحواس وتعبير أحدهما عن الآخر إلى كسر الحواجز الموجودة بين الحواس وتجاوز حدود المعاني لإشراك المتلقى في تجربة الشاعر التي عاشها خلال خلق العمل الأدبي المقروء.

الكلمات الدليلية: أبو القاسم الشابي، سهراب سبهري، تراسل الحواس.

*. أستاذة مساعدة بأكاديمية العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية بطهران، إيران.

z.erfatpor@gmail.com

** . طالبة مرحلة الماجستير بأكاديمية العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية بطهران، إيران.

Aminsoleimani66@gmail.com

التنقيح والمراجعة اللغوية: د. عبد الحميد أحمدى

تاريخ القبول: ١٣٩٣/٥/٢٨ ش

تاريخ الوصول: ١٣٩٢/٩/١٤ ش

المقدمة

إنّ النمو العضوى داخل القصيدة قد لا يتمّ إلاّ بترباط بعض الحواس؛ إذ إنّ تساوقها يتولد من داخل العلاقات التي يتطلبها النص؛ فقد يتطلب المعنى في البيت أن تتبثق حاسة ثانية وثالثة ورابعة، ليتم المعنى وتكتمل الصور الحسية. وقد لا تتشكل الصورة النهائية إلاّ بتضافر عدد من الحواس. ولاشك أن المتعة الفنية في ترباط الحواس أجمل فنيّاً، علماً بأنّ لها النصيب الأوفى في الشعر العربي؛ كما أنّ الإحساس بالجمال لا يقتصر على حاسة واحدة فحسب، وإنما حواسّ مختلفة يمكن بوساطتها التحسس بجمال الصور، نظراً لما تشكّله تلك الحواس من أثر في تحقيق الغرض الذي يتوخاه الشاعر. (إبراهيم، ٢٠٠٠م: ١٣٠) لذا قام الشعراء بتبادل معطيات الحواسّ ومزجها لخلق صورة حسية أو شعرية منفصلة تساعدهم في نقل الأثر النفسى لمتلقى شعرهم. وأما تراسل الحواس فهو «أن نصّف مدركات حاسة من الحواس بصفات مدركات الحواس الأخرى؛ فتعطي المسموعات ألواناً وتصير المشمومات أنعاماً، وتصبح المرئيات عطرة». (الجنابي، لاتا: ٢٢) وإذا كان هذا التراسل الحواسى بمعناه العام يقصد أن ينأى الشاعر عن السياق المألوف للمفردة المعبرة عن حاسة ما فينقل إليها مفردات حاسة أخرى (الصائغ، ١٩٩٧م: ١٣٦) فإنّ هذا يدل بشكل أو بآخر على اقتراب الصورة التراسلية من الصورة الغرائبية التي تغادر فيها الألفاظ مدلولات الأشياء ومنطقها. فالغريب هو ما يأتي من منطقة خارج منطقة الألفة، ويسترعى النظر بوجوده خارج مقرّه. (كيليطو، ١٩٩٧م: ٦٠) فالشاعر يعمد إلى مزج الحواسّ والربط بينها لاستقطاب انتباه المتلقى وإثارة الانفعال النفسى فيه، كى يشعر بما يشعر به الشاعر في الأجواء النفسية والشعورية. وجدير بالذكر أننا اخترنا العمل الشعرى لكل من الشابي وسبهرى لأنّهما ينتميان إلى المدرسة الرمانسية في الشعر، حيث استخدمتا تقنية تراسل الحواس في شعرهما للتعبير عن تجاربهما الشعرية والكشف عما حولهما بطريقة غير مطروقة.

أسئلة البحث

إلى أى مدى استخدم الشابي وسبهرى تقنية تراسل الحواس في أشعارهما؟

ما هو هدف استخدام تقنية تراسل الحواس عند الشابي وسبهري؟
أكان استخدام تقنية تراسل الحواس في أشعارهما استخداماً ناجحاً؟

منهج البحث

تعتمد هذه الدراسة على المنهج الوصفي - التحليلي، الذي يغوص في البحث بالتحليل الدقيق المتكامل من خلال دراسة النماذج الشعرية وتحليلها من جهة استخدام تقنية تراسل الحواس ومقارنة مدى استخدامها في شعر أبي القاسم الشابي وسهراب سبهري.

خلفية البحث

أنجزت دراسات عديدة حول ظاهرة تراسل الحواس في الأدبين العربي والفارسي، منها: "بلاغة تراسل الحواس في القرآن الكريم (نماذج تطبيقية)" لأحمد فتحى رمضان، مطبوعة في مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، العدد الأول، المجلد الرابع عشر، كانون الثاني ٢٠٠٧م؛ ففي هذه الدراسة يأتي الباحث بدراسة ظاهرة تراسل الحواس في الآيات القرآنية، وكيفية توظيفها. "ظاهرة تراسل الحواس في شعر الشيخ أحمد الوائلى" لكاظم عبدالله عبدالنبي عنوز مطبوعة في مجلة الدراسات والأوثقة، العدد السادس، ٢٠٠٧م؛ وفي هذا البحث قام الباحث بتحليل النماذج الشعرية من ديوان الشيخ أحمد الوائلى التي استخدم فيها تقنية تراسل الحواس، ويبيّن مدى نجاحه في استخدامها. الدراسة الأخرى هي "الصورة الفنية في التجربة الرومانسية؛ ديوان أغاني الحياة لأبي قاسم الشابي" رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، لزكية يحياوى، في جامعة مولود معمري تيزي - وزر في الجمهورية الجزائرية، ٢٠١١م؛ تستعرض الباحثة في قسم من هذه الرسالة نماذج شعرية من ديوان الشابي التي استخدم فيها تراسل الحواس، وجزير بالذكر أن الباحثة تأتي بالنماذج دون تحليلها لكن نحن في دراستنا قمنا بتحليل النماذج وتبيين كيفية استخدام تراسل الحواس فيها؛ ورسالة أخرى مقدمة لنيل درجة الماجستير تحت عنوان "البنية الفنية في شعر كمال أحمد غنيم" لخضر محمد أبو ججوج، ففي قسم من هذه الرسالة درس الباحث ظاهرة تراسل الحواس في شعر أحمد غنيم.

ودراسة أخرى مقدمة لنيل درجة الماجستير تحت عنوان "شعر سعدى يوسف، دراسة تحليلية"؛ وفي هذه الرسالة أيضاً قامت الباحثة بدراسة وجيزة وعابرة لظاهرة تراسل الحواس في شعر سعدى يوسف. كما أن هناك مقالة تحت عنوان: "ابوالقاسم شابي ميان رومانتيسم وسمبوليسم" حجت رسولی، وسعيد فروغی نیا في مجلة پژوهش های نقد و ترجمه زبان و ادبیات عربی، العدد الاول، شتاء سنة ١٣٩٠ش، وقد تناولت هذه المقالة الرمزية في شعر الشابي ودرست بعض سمات الرمزية التي تتواجد في شعره، منها: تراسل الحواس، وقد ذكرت نموذجين من هذه الظاهرة في شعر الشابي. (انظر: رسولی، فروغی نیا، ص ١٨، ١٩) وأما في الأدب الفارسی فهناك دراسات في ظاهرة تراسل الحواس، منها: "حواس پنجگانه وحس آمیزی در شعر" لبرستو کریمی، مطبوعة في مجلة گوهر گویا، السنة الثانية، العدد الثامن، سنة ١٣٨٧ش. و"حس آمیزی؛ سرشت و ماهیت" لمینا بهنام، مطبوعة في مجلة پژوهش زبان و ادبیات فارسی، العدد التاسع عشر، سنة ١٣٨٩ش. وقد استفدنا من معظم هذه الدراسات في هذا البحث، غير أن دراسة الموضوع (تراسل الحواس) دراسة مقارنة في الأدبين العربي والفارسی من خلال شعر الشابي وسهری دراسة جديدة لم يتطرق إليها أحد من قبل.

مصطلح تراسل الحواس ومفهومه

كثيراً ما نفصل بين مدركات حواسنا الخمس ولا نخلط بينها، فنقول: إنّ اللون الأبيض مدرك بصری، وصوت العصفور مدرك سمعی، وحلاوة العسل مدرك ذوقی، ورائحة الزهور مدرك شمی، ونعومة الزجاج مدرك لمسی؛ كل هذا صحيح إذا اكتفينا بالجانب الحسی للمدركات، أما إذا نظرنا إلى جانبيها النفسی فإن الأمر يختلف، فمثلاً اللون الأبيض يبعث على الانشراح، وكذلك نعومة الزجاج؛ ولذلك يجوز أن نقول: الأبيض الناعم، كما أنّ صوت العصفور يبعث على النشوة وكذلك عطر الزهرة، أفلا يجوز أن نقول: الصوت العطري؟ إنّ هذا الخلط جائز في عالم الشعر، وينطوي تحت ظاهرة تُسمّى تراسل الحواس؛ أي وصف مدركات حاسة من الحواس بصفات حاسة أخرى. (فارس، ٢٠٠٤م: ١٩٤) وفي ذلك إبراز للأحاسيس والعلاقات الخفية بين

الأشياء؛ فالصورة المتجاوبة أو المتراسلة أو المزدوجة أو المحوِّلة كلها مصطلحات تحمل دلالة واحدة، وهي الصور التي تصف مدركات حاسية من خلال حاسة أخرى، فتعطي المسموعات ألواناً وتهب الألوان أنغاماً وتُصيِّر المرنّيات عاطرةً، وتجعل المشمومات ألحاناً، (اليافي، ١٩٨٢م: ١٥٨) بحيث تتفاعل جملة الحواس البشرية في بوتقة الإحساس الفياض الذي يستغرق الحالة الشعورية ويضئ الدفقة التصويرية ويمدّها بطاقات من التنوع ليزيد الصورة جمالاً ووضوحاً من خلال التفاعل بين الحواس المختلفة التي تشكل الوعي والإحساس. (أبوججوح، ٢٠١٠م: ٧٦) «ويعطى تراسل الحواس للشاعر فرصة استثمار الإيجاء في حاستين أو أكثر، وبذلك يكتفّ مشاعره، ويركّزها في الإتجاه الذي هو ينشده؛ يضاف إلى هذا أن تراسل الحواس مما يُثري اللغة ويُنميها، لأنه يعني ضمناً أن ينأى الشاعر عن السياق المؤلف للمفردة المعبرة عن حاسة ما، فينقل إليها مفردات حاسة أخرى؛ وبذلك تتنوع أساليب التعبير عن الحاسة الواحدة.» (الصائغ، ١٩٩٧م: ٣٦)

الرمز والرمزية وتراسل الحواس مجموعة من المفهومات التي تنحدر من المعنى الأصلي لكلمة رمز. إن كلمة symbolon اليونانية كانت تستعمل للدلالة على أداة مشطورة إلى نصفين، يتقاسمهما شخصان، وتصير رمزاً ذا معنى حين يستطيع حاملها تجميع جزئها، أي إن أجزاء الكل تولد فيما بينها علاقة تكامل. وفي الحديث عن الرمز تتشارك حاستان، ويمكن لهذه العلاقات أن تنشأ بين الأشياء المختلفة، وبين ما هو مرئى وما هو غير مرئى. إن توافق الحواس هذا هو أحد أهم المفهومات التي تميزت بها المدرسة الرمزية، وأطلق عليه مفهوم الـ correspondance وترجم إلى العربية بـ "تراسل الحواس"، أو "تزامن الحواس"، أو "توافق الحواس"، أو "التوافق على نحو مختصر"، وترجم حتى بـ "نظرية العلاقات"، ودُرس في إطار التمازج في التفاعل الحسى. (الغدامي، ٢٠١١: ٦)

نظرية تراسل الحواس

إن تراسل الحواس باعتباره ظاهرة فنية له جذور في الشعرين العربي والفارسي

القديمين، كما نجد في الشعر الغربي القديم أيضاً. وفي القرآن الكريم أيضاً نجد هذا التراسل أو التبادل بين معطيات الحواس، حيث يقول الله سبحانه وتعالى في الآية الشريفة: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصُحُفٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (الزخرف: ٧١)

أمّا تراسل الحواس في معناه النقدي والبلاغي فإنه يرتبط بالعصر الحديث، حيث أنّ الشاعر الفرنسي بودلير^١ يعدّ أول من تكلم عنه نظرياً وطبقه في شعره؛ ففي تنظيره يقول: إنّ من العجيب أن يكون الصوت غير قادر أن يوحى باللون وإن الألوان لا تستطيع أن تعطى فكرة عن النغم وأنّ الصوت واللون غير صالحين للتعبير عن الأفكار. (فارس، ٢٠٠٤م: ١٩٤)

وفي الشعر التالي يقول:

فإنّ العطور والألوان والأنغام تتجاوبُ
فمن العطور ما هي ندية كلحم الأطفال
ومنها العذبة كلحن المزامير

ومنها الخضراء من مروج (الشابي، ١٩٩٧م: ١٩٤)

ثم تطورت وازدهرت نظرية تراسل الحواس على يد الرمزيين وقاموا بالمزج بين أكثر من حواسين في أدبهم. والجدير بالذكر أن تراسل الحواس في المدارس الأدبية الأخرى كالرومانسية مثلاً كان موجوداً، لكن ازدهاره وتطوره كان على يد الرمزيين. في الواقع «إنّ أول ما بشر به الرمزيون إجراء الفوضى في مدركات الحواس المختلفة، ومحاوله الوصول بالشعر إلى اللامحدودية التي وصلها الفن الموسيقى.» (خورشا، ١٣٨٨ش: ٢١٠)

حياة أبي القاسم الشابي فيما يتصل بالنص

ولد أبو القاسم الشابي عام ١٩٠٩م، في بلدة "الشابية" إحدى ضواحي مدينة "توزر"، كبرى بلاد "الجريد" بالجنوب التونسي. يمثل الشابي نموذجاً خاصاً في حياته،

1. charles Pierre Baudelaire

وشعره؛ بعبريته المبكرة التي جادت بالشعر، وإدراكه للكثير من الأمور، فالقارئ لديوانه يحتاج إلى جهد ليقنع أنه نابع من شاب في مقتبل العمر لم يتجاوز عقده الثالث. وذلك لما في شعره تجربة شعرية، وشعورية، وانفعالية، وصور مبتكرة، ومعرفة بالشعر وفنونه. (أبوالرب، ٢٠٠٩م: ١٤) أبو القاسم الشابي استخدم تراسل الحواس في شعره لتعميق دلالة صورته الشعرية، والكشف عن أعماق الصورة الشعورية، فمن الطبيعي أن يستخدم الشابي تقنية تراسل الحواس في شعره لكسر المألوف والعتاد، لأنه من الذين ينتمون إلى جماعة أبلو، هؤلاء الذين «طوروا الأخيلة والصور، وانتقلوا بها من مجرد التشبيه والاستعاره والمجاز والكناية إلى الصورة الحية الناطقة المتحركة، معتمدين على التجسيد والتشخيص وتراسل الحواس.» (خورشا، ١٣٨٨ش: ١٣٤)

حياة سهراب سبهري فيما يتصل بالنص

ولد سهراب عام ١٣٠٧ش في مدينة كاشان. كان سهراب قبل كل شيء ماراً في أزقة الأساطير الإيرانية، فتفانى في طبيعة بيئته التي نشأ فيها. (حيدريان شهري، ١٣٩١ش: ٤١) فهو كان رسماً قبل أن يكون شاعراً، وهذا الأمر أثر على أدبه، فأصبح شعره لوحة دقيقة من الطبيعة. وجدير بالذكر أن من ميزات سبهري الشعرية هي استخدام تقنية تراسل الحواس بصورة مكثفة، وهذه التقنية وإن كانت شائعة الاستخدام عند الشعراء السابقين ولكنها في شعر سبهري كانت أكثر توظيفاً، ونستطيع أن نعدّ تراسل الحواس ميزة ملحوظة من ميزات أسلوب سبهري الشعري. فتراسل الحواس يعد من الأدوات التي اتخذها سبهري لكسر المعمول أو العادي في شعره، ولكثرة استعماله لهذه التقنية التصويرية، يعدها البعض أنها غير ناجحة تماماً في شعره؛ وترجع أهمية سهراب سبهري إلى أسلوبه الشعري، وأهم عنصر في هذا الأسلوب هو كثرة توظيفه لتقنية تراسل الحواس، التي تكون تارةً ناجحة وتارةً غير ناجحة. (روحاني وفياضي، ١٣٨٨ش: ١٥)

تراسل الحواس بين الشابي و سبهري

تراسل الحواس يؤدي إلى نقل التجربة الشعورية من نفس الشاعر إلى نفس

المتلقى كما تنطبع في وجدانه وخياله، وجدير بالذكر أنّ تراسل الحواس ينقل التجربة الشعورية نقلاً خصباً ويجعلها حية التصوير بالوجه الذيثير انفعالية المتلقى ويأخذ به للتعلم في الصورة الشعرية المتقدمة؛ فتراسل الحواس يعمل على نقل صفات مدركات الحواس. «فنقل صفاتها إلى بعض يساعد على نقل الأثر النفسى، كما هو قريب مما هو، وبذا تكمل أداة التعبير بنفوذها إلى نقل الأحاسيس الدقيقة.» (هلال، ١٩٧٣م: ٣٩٥) فظاهرة تراسل الحواس توجد في الشعر العربي والفارسي، لأنها تساعد الشاعر في نقل ما يشعر به إلى نفس المتلقى كما هو في نفس الشاعر؛ ولهذا نرى أنّ الشاعر العربي أبا القاسم الشابي والفارسي سبهرى كلاهما استخدما هذه التقنية اللغوية في عملية التوصيل الأدبية، وفيما يلي استعراض لخصائص هذه الظاهرة في شعرهما.

الف) الصورة الصوتية المحولة إلى البصرية وبالعكس:

«وما من شك في أن تبادل الحواس لمواضعها له دلالة إيحائية قوية تنبعث من السياق الشعري، وربما يستمر تراسل الحواس كي يؤكد الصورة ويضيف إليها جديداً.» (الخطاط، ٢٠١٢م: ١٦٣) ويتجلى ذلك بوضوح في أبيات الشابي حيث يقول:

سُيَسْمَعُ صَوْتٌ كَلْحَنِ شَجِيٍّ تَطَايِرٍ مِنْ خَفَقَاتِ الْوَتْرِ
يُرَدِّدُهُ حَزْنُنَا فِي سَكُونٍ عَلَى قَبْرِنَا الصَّامِتِ الْمَطْمَئِنِّ

(الشابي، ١٩٩٧م: ١٦٢)

يقول الشابي في هذين البيتين: سُبُسمَع صوت كلحن حزين يتناثر وينتشر من حركات الأوتار، يرَدِّده حزننا في سكوت على قبرنا الصامت الساكن، يشير الشاعر في هذين البيتين إلى البيئة التي عاش ظروفها الضنكة وعانى آلامها دون أن يسمع له نداء.

فهكذا نرى الشابي شاعر الرومانسية يمزج بين حاسة البصر والسمع لخلق صورة شعرية موحية حتى يتمكن من التعبير عن تجربته الشعورية إلى متلقى شعره. فهكذا تتشكل تقنية تراسل الحواس، عن طريق نقل ألفاظ وصفات متصلة بعالم معين من عوالم الحس كالسمع، والبصر، واللمس، وغيرهما من الحواس إلى مجال آخر من مجالات الحس كعون قوى على التعبير والإيحاء. (محمد حبيبي، ١٤١٥ق: ٣٦٥) فمزج الشاعر

بين الحاستين حاسة السمع وحاسة البصر حتى يأخذ بالسامع إلى الجو الذي يعيش فيه ويجعل الصوت الشجي وهو من مدركات السمع يتطير من خفقات الوتر حيث يبصر؛ إذ أن التطاير من مدركات البصر.

وفي مكان آخر يقول:

والأرض حاملة تغنى بين أسراب النجوم

بين الحمامل والمداول بالترنم والنشيد

تصغى لنجواك الجميلة وهى أغنية (الشابي، ١٩٩٧م: ١٨٨)

يقول الشابي: إن الأرض حاملة غارقة في الحلم والرؤيا تغنى بين أسراب النجوم،

وبين المروج والأنهار، تترنم، وتغنى، وتنصت لنجواك الجميلة التي هي أغنية.

فترى الشابي في هذه القطعة الشعرية أيضاً مزج بين الحواس وطاقاتها، ويحمل بتراسل

حاستي السمع والبصر على الانزياح عن حد التصوير الذي يتبادر إلى ذهن المتلقى؛

فالشاعر جعل النجوى المسموعة جميلة ومرئية، فمن خلالها خلق دلالة مختلفة عن الدلالة

المألوفة إلى ذهن المتلقى؛ فتراسل الحواس يخلق دلالة جديدة تدهش المتلقى بوقوعه في

دائرة الانزياح عن المؤلف. فيستخدم الشاعر هنا تقنية تراسل الحواس لتقديم صورته

الشعرية لأن التأثير بالتراسل أقوى، ووقعه أشد على النفس؛ إذ يقدم الشاعر طازجة كما

يحبس بها الأديب، حيث يسعى إلى تقديمها فورة مشاعره وأحاسيسه، لا كما هي في عالم

المدركات الحسية العادية التي يعرفها المتلقى، وبذلك يشكل التراسل إنزياحاً تصويرياً

تنتقل فيه الألفاظ من العلاقة المعيارية النسقية، بين الدوال، إلى علاقات تنتج دلالات

مفعمة بالإشعاع والتجلي. (أبوججوح، ٢١٠: ٧٦-٧٧)

والشاعر الفارسي سهراب سبهرى يمزج بين حاستي السمع والبصر حينما يقول:

من در این خانه به گمنامی غمناک علف نزدیكم من صدای نفس باغچه را می شنوم

و صدای ظلمت را، وقتی از برگ می ریزد و صدای سرفه روشنی از پشت درخت

(سبهرى، ١٣٨٥ش: ٢٨٦)

الترجمة: أنا في هذا البيت قريب الغربية من غربة العشب الحزينة

أنا أسمع صوت نفس الحديقة

وصوت الظلمة حينما تنصّب من ورقة
وصوت سعال الضياء من وراء الشجرة

ففى الشعر المذكور من سبهرى نجد اختلاطاً وتبادلاً بين حاستى السمع والبصر ونرى الشاعر يسمع الظلمة بدل أن يراها وتصيح الظلمة المرئية، مسموعة، وفى البيت الأخير أيضاً نرى أنّ الشاعر يستخدم تقنية تراسل الحواس ويعبر عن السعال (من مدركات السمع) بالضياء (مدركات البصر) فالسعال سمعى لكن سبهرى لإثارة الدهشة جعله بصرى، فيعمد إلى التبادل بين الحواس حتى يقدم صورة أكثر تأثيراً على المتلقى؛ وأيضاً الشاعر من خلال استخدام تقنية تراسل الحواس يزيد ألفاظه الشعرية طاقة للتعبير عن تجربته الشعورية. وجدير بالذكر أن الشاعر عن طريق التبادل بين معطيات الحواس استطاع أن يدهش المتلقى ويخيب أفق انتظاره ويشعره بعمق جمالية الصورة الشعرية. فهو يمزج بين الحواس وطاقاتها حتى يعمل على إثارة دهشة المتلقى عند تلقى الصورة الشعرية بخلق صور شعرية غير مألوفة بالنسبة إلى المتلقى، و«بذلك يحق أن يقال أن التراسل هو وسيلة من وسائل بناء الصورة بهدف الجمال الفنى.» (الوائلى، ١٩٩٣م: ٣) وفى مكان آخر يقول:

علف ها ريزش رؤيا را در چشمانم شنيدند:

میان دو دست تمنایم رویدی / در من تراویدی

آهنگ تاریخ اندامت را شنیدم

(سبهرى، ١٣٨٥ش: ١٣٦)

الترجمة: سمعت الأعشاب انصباب الحلم فى عيونى

ترعرعت بين يدى رجائى / نضحت فى

سمعت الأغنية المظلمة لهندامك

وفى هذه القطعة الشعرية قام سبهرى بتبادل معطيات الحواس واستغلال طاقاتها للتعبير الأدق عما يعيش فيه من شعور مرهف، ولهذا يجعل العين أداة للسمع، فيسلبها طاقتها البصرية، لبيدع صورة شعرية غير مطروقة من قبل، ولم يعرفها المتلقى قبل هذا، فيقول إنّ الحشيش سمع انسكاب الحلم فى عينى. وفى الشطر الأخير منح الموسيقى

التي تكون من مدركات السمع لونهاً وجعلها من مدركات البصر وعن طريق تراسل الحواس أو التبادل بين معطيات الحواس يسعى إلى ترسيخ الصورة الشعرية في ذهن المتلقى شعره.

وفي مكان آخر يقول سبهرى:

حكايت کن از بم‌هایی که من خواب بودم، و افتاد / حکایت کن از گونه‌هایی که من خواب بودم، و تر شد
بگو چند مرغابی از روی دریا پریدند / در آن گیر و داری که چرخ زره پوش از روی رؤیای کودک گذر داشت
قناری نخ زرد آواز خود را به پای چه احساس آسایشی بست

(سبهرى، ١٣٨٥ش: ٨)

الترجمة: احكِ عن القنابل التي سَقَطَتْ وأنا كنت نائماً / احكِ عن الحدود التي تبلّلت وأنا كنت نائماً / قل كم بطِّ قَفَزَ من فوق البحر / في تلك الضجّة التي عبرت فيها دبابة مدججة من فوق حُلْم الطفل / في رِجْلِ أَى شعور بالطمأنينة شدّ الكَنَارَى خيط غنائه الأصفر؟!

وجدير بالذكر أنّ التبادل بين معطيات الحواس والتشابك بين طاقاتها يمنح الشاعر أو الأديب طاقة مضاعفة لرسم الصورة الشعرية المنشودة، ويساعده أيضاً على توفير الانفعال النفسى في المتلقى، كما لاحظنا في الشعر الأخير الذكر من سهراب سبهرى حينما يخلط بين حاسة السمع والبصر، ويمنح غناء الكنارى الذى هو من مدركات السمع لونهاً أصفر فيصبح من المرئيات.

فهكذا رأينا كيف استخدم الشابي وسبهرى تقنية تراسل الحواس بطريقة لطيفة تظهر لنا اندماج الشعارين في الطبيعة وقدرتهما في كسر الحواجز بين مدركات الحس ليرتكا تأثيراً أقوى على المتلقى.

(ب) الصورة الصوتية المتحوّلة إلى الذوقية:

من المعروف أنّ تراسل الحواس يعطى فرصة لاستغلال حاستين أو أكثر من خلال

ذكر حاسة واحدة، إذ تتداخل وظيفتا حاسة السمع والذوق تداخلاً فنياً، وتنتج بسبب ذلك صورة فنية جميلة لافتة للسامع، وذلك يفتح نافذة شاسعة للتأمل في الحواس ومعطياتها. (عفاف إبراهيم، ٢٠١٢م: ١٦٢) فالشابي لخلق صورة لافتة للسامع يعمل على تبادل حاسة الصوت والذوق، ويقول:

أيها الطائر المكتئب تَغَرَّدْ إن شَدُو الطيور حلوٌ رخيّمه
وارتشف من فمي الأناشيدَ سَكْرَى فالهوى ساحر الدلال وَسيمه

(الشابي، ١٩٩٧م: ١١٩)

يقول: يا أيها الطائر المكتئب غرّد، فإنّ صوت تغريد الطيور عذبٌ، وامتنصّ من فمي الأناشيد وهي سكرى، فالحب دلالة ساحر وجميل. فهو يستمد من الطبيعة ليعبر ما يجول في ذهنه، ينادى الطائر المكتئب المترنم ليغني ما هو ينشده. وكما نرى في المصراع الثاني من البيت الأول لو اعتبرنا مفردة "حلو" هنا بمعنى ما حلا وعذب طعمه، فيكون الشاعر هنا قد مزج حاسة السمع مع حاسة الذوق، حيث منح الأناشيد المسموعة طعماً، فيعبر عن ليونة الأناشيد بالحلاوة التي تكون هي من مدركات الذوق. وفي البيت الثاني مرة أخرى يمنح الأناشيد التي تخرج من فمه وهي من المسموعات صورة ذوقية، حيث يطلب من المتلقى أن يرتشفها من فمه كشراب، ليزيد المتلقى شوقاً للبحث والغور في أعماق التجربة الشعورية، والالتذاذ بالصورة الشعرية المقدمة من صوت الأناشيد التي تمتع بالعدوية والنشوة. وأيضاً يزيد الإيقاع الشعري حتى يرتفع مستوى التلقى والتأثير الناتج أثناء عملية التواصل الأدبي، فالإيقاع في الأدب خاصةً والفن عامة هو دقات الدم المندفعة في شرايين العمل الفني. (راغب، ١٩٩٦م: ١٦٧) ولا شك في «أنّ موسيقى الشعر تسهم إسهاماً فاعلاً في خلق الجو النفسى الذى يجعل أرضية الصورة الشعرية أكثر اتساعاً ... لكى يرقص المتلقى على إيقاعها النشوى.» (عدنان قاسم، ٢٠٠٠م: ٢٧) فالشاعر نقل الصورة الشعرية من مستواها المألوف إلى مستوى انزياحى بتراسل الحواس ليعمق المشهد الذى يتغلغل في نفسه. فينجح تراسل الحواس في عملية تعميق الصورة الشعورية والكشف عن أعماقها الجمالية.

ونجد تبادل حاسة السمع والذوق عند سهراب سبهري حينما يقول:

در ابعاد این عصر خاموشی

من از طعم تصنیف در متن ادراک یک کوچه تنها ترم

(سبهری، ۱۳۸۵: ۱۳۸۵)

الترجمة: هنا في فضاءات (زوايا) عهد الصمت هذا، أنا أكثر وحدةً وغربةً من طعم أغنية ذاقها إدراك زقاق.

سبهرى يجعل للغناء طعماً ذوقياً؛ وهذا كله تمهيد لكسر الحواجز القائمة بين الحواس وتشاركها في خلق الصورة الشعرية المثيرة لدهشة السامع والمتلقى، وتخليص الصور الشعرية من الجمود، واستخدام طاقة الحواس بما فيها للتعبير عن الشعور المكنم في الأجواء النفسية، وهذا هو شأن التراسل الذى من وظائفه أنه رد فعل فنى على المألوف المكرر من الصورة الشعرية. (حسين خياط، ۲۰۱۲م: ۱۶۴)

وفي مكان آخر يقول:

ای وزش شور! ای شدیدترین شکل!

سایه لیوان آب را

تا عطش این صداقت متلاشی، راهنمائی کن

(سبهری، ۱۳۸۵ش: ۴۱۳)

الترجمة: يا أيها الهبوب المالح! يا أشدَّ صورةً منظرًا!

دَلَّ ظَلَّ كأس الماء / للوصول إلى ظمأً هذا الصدق المتلاشى

فهبوب الريح هو من مدركات حاسة السمع ولكن سبهرى يجعله من مدركات حاسة الذوق ويمنحه ملوحةً، حتى يخلق صورة شعرية رائعة وغير مطروقة لذهن المتلقى، ويشير ذوقه لمتابعة الشعر والتمتع بالصورة الشعرية، كما أنه عمل على استخدام تقنية تراسل الحواس للتعبير الأدق عمًا في أعماق وجوده من كلام وأحاسيس.

فمن خلال التبادل بين الحواس ومعطياتها تتكوّن الصورة الشعرية، كما يقول عشري زايد: «يتم بناء الصورة المفردة عن طريق تراسل الحواس؛ إذ تتداخل العناصر الحسية بما تشتمل عليه من ألوان، وأشكال، وملمس، ورائحة، وطعم، فتشترك جميعها لتشكيل الصورة الشعرية؛ كأن يقوم الشاعر بخلع صفة حاسة البصر على حاسة السمع؛ فما

يدرك بالبصر يصبح مسموعاً والمسموع يصبح مرئياً، وما حقه أن يُسمع يُشمّ وهكذا.» (عشرى زايد، ٢٠٠٠م: ٨١) وذلك وفقاً لمقتضيات الانفعال الداخلي للشاعر، «فتتحول مظاهر الطبيعة الصامتة إلى رموز ذات معطيات حية، ويوحى الصوت وقعاً نفسياً شبيهاً بذلك الذي يوحيه العطر أو اللون.» (هلال، ١٩٧٣م: ٤١٩)

(ج) الصورة البصرية المحولة إلى الشمية:

إنّ الشاعر في مجال نقل الأثر النفسى يعمل على مزج الحواس حتى يستطيع أن ينقل الأثر إلى المتلقى ويجعله سهيماً في التجربة الشعرية التي تنشأ في الأجواء النفسية. ففي هذه الأحوال تصبح السمعيات مرئيات والمرئيات مشمومات، كما نرى ذلك عند الشابي الذي يلجأ إلى تراسل الحواس عندما يصبح الأثر النفسى طاغياً؛ فهو يمزج بين الحاستين البصرية والشمية ويعمل على تبادل مدركاتهما الحسية، كقوله:

ويبقى الجميعُ كحلمٍ بديعٍ تألق في مهجةٍ واندثر
وتبقى البذورُ التي حُمِلَتْ ذخيرةَ عُمرٍ جميلٍ غبرّ
وذكرى فصولٍ ورؤيا حياةٍ وأشباحٍ دنياً تلاشتْ زُمُرُ
معاقنةٌ وهي تحت الضبابِ وتحت الثلوجِ وتحت المدرّ
لطيفِ الحياةِ الذي لا يملُ وقلبِ الربيعِ الشذى الخضرِ
وحالةٌ بأغاني الطيور وعطرِ الزهورِ وطعمِ الثمرِ

(الشابي، ١٩٩٧م: ٨٠)

يقول الشاعر في هذه الأبيات إنّ الطبيعة تكون في حالة قريبة من الموت بعد تلك الذكريات الجميلة الخضراء في الربيع وبعد تلك النضارة، ولكن يبقى البذر الصغير حياً في جوف الأرض البارد والمظلم، والشىء الوحيد الذي يجعله أن يبقى حياً هو الشوق إلى الحياة والأمل في المستقبل. فهو يعلم أن الربيع يعود بكلّ جماله ويحيى الأرض من بعد موتها.

فالشاعر في البيت الخامس من خلال استخدام تراسل الحواس خلق صورةً رائعةً جداً، حيث جعل الربيع وهو من المرئيات مشموماً، إذ يقول "الربيع الشذى"، ثم مزج الحلم وهو الطيف الذي نراه في النوم بالأغاني، وهي من السمعيات، ثم خلطه بعطر

الزهور، وهو من المشمومات، وجعله مرثياً ليرسخ ما في قلبه في ذهن المتلقى من خلال تكوين هذا المشهد. ويقوم الشاعر باستخدام تقنية تراسل الحواس بدافع ترقية جمالية الأثر الأدبي والموسيقى المعنوية لأنّ الموسيقى المعنوية تزيد الكلام انفعاليةً، وتؤدي إلى جمالية النص الأدبي كما قلنا في بداية الكلام. (هادي، ١٣٧٦ش: ١٨٠) وهي تؤثر على نفسية المتلقى، فإنّ المتلقى في هذا البيت الشعري أصبح يسمع، ويفهم، ويعي، ويحس، ويحزن، وتلهب عواطفه، وتتأجج مشاعره كمساهم في العملية الأدبية، وتتبعث كوامنه الشعورية الحارة، وذلك من خلال التركيب البديع والمدهش الذي حصل من خلال التراسل بين معطيات الحواس الخمس.

وفي مكان آخر يقول:

يا صميم الحياة قد وجم الناي

وغام الفضا فأين بروقك

.. كنت في فجرك الموشح بالأحلام عطراً يرفّ فوق ورودك

حالمًا ينهل الضياء ويصغي

لك في نشوة بوحي نشيدك

وكما نرى في الشطر الثالث يمزج الشابي أيضاً بين الحاستين البصرية والشمية، ويعمل على تبادل مدركاتهما الحسية، حيث يجعل نفسه وهو من المرثيات عطراً مشموماً، ومن ثم يجعل العطر شيئاً مرثياً يرفّ فوق الورد. ونستطيع القول إن الشاعر يحاول اختراق أسلوب الكتابة المستهلكة بأسلوب جديد لكي يثبت تفرّده وتميّزه عن باقي الشعراء، ويستخدم فيه تقنية تراسل الحواس التي تعتبر لغة صافية تنطلق من قلب الشاعر لتصل مباشرة إلى قلب المتلقى دون وسيط. (فتحى رمضان، ٢٠٠٧م: ٢٢١)

وأما قول سهراب سبهري في هذا المجال فهو:

كودكي ديدم ماه را بو می کرد/من زنی را ديدم نور در هاون می کوييد

(سبهري، ١٣٨٥ش: ٢٧٧)

الترجمة: رأيتُ طفلاً يشمُّ القمر / أنا رأيتُ امرأةً تدقُّ النورَ في الهاون.

سبهري في البيت الشعري المذكور يقدم لمتلقى شعره صورة رائعة من التبادل بين

حاستى البصر والشم، فالشاعر جعل المرئى الذى هو القمر من مدركات الشم حتى يحتاج الحواجز المرتفعة بين الحواس ويغير المؤلف، وتوظيف هذه التقنية يخلق الشاعر صورةً يأنس بها المتلقى مع كل غرابتها لذهنه، لأنَّ «الصورة من أشد العناصر المحسوسة تأثيراً فى النفس، وأقدرها على تثبيت الفكرة والإحساس فيها، فهى الوجه المرئى أو المحسوس للخيال، تستثير عواطف النفس وتحركها من مكانها.» (الساعى، ١٩٨٤م: ٢٨) ولهذا يسعى الشاعر إلى الإبداع فى خلقها، وكما سبق القول، يلجأ إلى خلق صور مبتكرة وبديعة، ومزج معطيات الحواس وتوظيف طاقتها دون أى مانع أو حاجز، وفى نفس الوقت يصبح المرئى مشموماً والمشموم مسموعاً.

فإننا عندما نقارن الصورة الشعرية عند الشابى وسبهرى نرى أن كليهما حاولا اختراق المؤلف واجتياح الحواجز الموجودة بين الحواس، ولكن استخدام التقنية عند سبهرى أغرب بالنسبة إلى الشابى، لأن الصورة الشعرية عنده تحتوى نطاق خيال أوسع من الصورة الشعرية التى قدمها الشابى خلال استخدامه لتقنية تراسل الحواس. والمجدير بالذكر أن هناك صوراً شعرية أخرى فى أشعار الشاعرين قد امتزجت الحواس فيها.

النتيجة

ومن خلال مقارنة تراسل الحواس فى شعر أبى القاسم الشابى وسهراب سبهرى توصلنا إلى نتائج، من أهمها:

- تراسل الحواس فى شعر الشاعرين أدى دوراً بارزاً فى خلق المعانى المبتكرة، وتنمية الصورة الشعرية، والتوسع فى الخيال، والرفع من مستوى الجمال الفنى لصورهما الشعرية. وقد استعمل الشابى وسبهرى هذه التقنية التصويرية (تراسل الحواس) فى أشعارهما لحث المتلقى لسبر أغوار الصورة الشعرية، وتوظيف خياله بشكل فسيح فى عملية التلقى، ورفع مستوى الاستلذاذ الأدبى. وبدأت تقنية تراسل الحواس ناجحة عند الشاعرين فى تصوير اللحظة الشعورية، والكشف عن أعماقها، وإثارة فضول المتلقى، ورفع مستوى تأثره بالشعر.

- إنَّ ظاهرة تراسل الحواس ساعدت الشعاعين في اجتياح حدود الحواس، وكسر الحواجز القائمة بينها للإبداع في المعاني الشعرية والصور؛ فالمتلقى دائماً ينتظر شعراً موافقاً لأفق توقعه، لكن تراسل الحواس يثير دهشته بالصورة الشعرية اللامتوقعة؛ وفي الواقع تراسل الحواس هو الذي يحثُّ المتلقى على متابعة العمل الأدبي والتمتع بالقراءة. ومن الملاحظ أنَّ استخدام تقنية تراسل الحواس في شعر سبهري يحثُّ المتلقى على المشاركة الدؤوبة في الكشف عن الصورة الشعرية، وذلك أقوى مما يفعله الشابي؛ لأنَّ سبهري يلف صورته الشعرية بستار من الغموض الذي يلح على المتلقى حتى يتأمل في الصورة الشعرية تأملاً تاماً.
- وكذلك لاحظنا أنَّ توظيف تقنية تراسل الحواس والتبادل بين معطيات الحواس أدَّى إلى انفتاح الحواس وإيجاد انفعال نفسى في نفس المتلقى، مما دعاه لكشف الصورة الشعرية الغير مألوفة بالتعمق فيها والتعايش مع تجربة الشاعر الشعورية حين خلق الصورة بالطريقة اللاواعية.
- وفي النهاية وجدنا التقنيات التصويرية الناتجة عن تراسل الحواس في شعر سبهري أصعب من الشابي، لأنه يوظفها بصورة غير مباشرة، ولكن القارئ لشعر الشابي يرى أنَّ تراسل الحواس عنده يتمُّ عن طريق تشبيه صريح جداً. وفي الواقع يسعى سبهري أكثر من الشابي إلى إدهاش المتلقى وإيقاعه في دائرة الحيرة، غير أنَّ كليهما حاولا عن طريق تراسل الحواس خلق دلالة جديدة ومختلفة عن الدلالة المألوفة والمتبادرة إلى ذهن المتلقى.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- إبراهيم، صاحب خليل. ٢٠٠٠م. الصورة السمعية في الشعر العربي قبل الإسلام. دمشق: اتحاد كتاب العرب.
- الجنابي، أحمد نصيف. لاتا. في الرؤيا الشعرية المعاصرة. الجمهورية العراقية: وزارة الإعلام.
- خورشا، صادق. ١٣٨٨ش. مجانى الشعر العربي الحديث ومدارسه. تهران: سمت.

- راغب، نبيل. ١٩٩٦م. موسوعة الإبداع الأدبي. لونجمان: الشركة المصرية العالمية للنشر.
سپهرى، سهراب. ١٣٨٥ش. هشت كتاب. تهران: انتشارات طهورى.
الشابى، أبو القاسم. ١٩٩٧م. أغانى الحياة. المجلد الأول. الطبعة الأولى. بيروت: دار الجليل.
شريعى، رضوان. ١٣٧٠ش. فرهنگ اصطلاحات ادبى. تهران: انتشارات هيرمند.
الصائغ، وجدان. ٢٠٠٣م. الصورة الاستعارية فى الشعر العربى الحديث. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
عدنان قاسم، حسين. ٢٠٠٠م. التصوير الشعرى. القاهرة: الدار العربية.
عشرى زايد، على. ٢٠٠٢م. عن بناء القصيدة العربية الحديثة. القاهرة: مكتبة ابن سينا.
كيطيلو، أحمد. ١٩٩٧م. الأدب والغرابه دراسات بنويوه فى الأدب العربى. الطبعة الثالثة. بيروت: دار الطليعه.
هادى، روح الله. ١٣٧٦ش. آرايه هاى ادبى. تهران: شركت چاپ و نشر كتابهاى درسى ايران.
هلال، محمد غنيمى. ١٩٧٣م. النقد الأدبى الحديث. القاهرة: دار النهضه.
اليافى، نعيم. ١٩٨٢م. مقدمة لدراسة الصورة الفنية. دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومى.

المقالات

- رسولى، حجت وسعيد فروغى نيا. ١٣٩٠ش. «أبو القاسم شابى ميان رومانتيسم و سمبوليسم». مجلة پژوهشهاى نقد و ترجمه زبان و ادبيات عربى. العدد الأول. صص ٤٧-٦٦.
روحانى، مسعود ومحمد، فياضى. «سهراب سپهرى، اندیشه اى عادت ستيز، شعرى هنجارگرىز بررسى سه دفتر شعرصداى پاى آب، مسافر و حجم سبز». فصلنامه پژوهش هاى ادبى. سال ٦. شماره ٢٣. صص ١٢٦-١٠٩.
عبدالنبى، عنوز وكاظم عبدالله. ٢٠٠٧م. «تراسل الحواس فى شعر الشيخ أحمد الوائلى». مجلة مركز الدراسات والأوثقة. العدد السادس. صص ١٧٧-١٦٧.
الغزامى، عبد الله. ٢٠١١م. «تراسل الحواس - انفعالية النص». صحيفة المثقف. العدد ١٦٣٧. العراق.
فتحى رمضان، أحمد. ٢٠٠٧م. «بلاغه تراسل الحواس فى القرآن الكريم». مجلة جامعة الموصل. المجلد ١٤. العدد الأول. صص ١٦-١.
الرسائل الجامعية
فارس، الزهر. ٢٠٠٥م. الصورة الفنية فى شعر عثمان لوصيف. جامعة قسنطينة: رسالة جامعية مقدمة لنيل درجة الماجستير.

- محمد أبو جحجوح، خضر. ٢٠١٠م. البنية الفنية في شعر كمال أحمد غنيم. غزة: الجامعة الإسلامية.
- مصطفى أبو الرب، أياد توفيق. ٢٠٠٩م. أثر النزعة التشاؤمية في المعجم الشعري لأبي القاسم الشابي، نابلس، جامعة النجاح الوطنية: رسالة ماجستير.
- حسين خياط، عفاف إبراهيم. ٢٠١٢م. رثاء الأب في الشعر العربي الحديث. لامك: رسالة جامعية مقدمة لنيل درجة الماجستير.
- محمد حبيبي، محمد بن حمود. ١٤١٥ق. الاتجاه الابتداعي في الشعر السعودي الحديث إلى بداية التسعينيات الهجرى دراسة موضوعية وفنية. جامعة أم القرى: رسالة ماجستير.